

صور من الأثر القرآني لدى مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية*

دكتور فاطمه قادري

عضو الهيئة العلمية فى جامعة يزد

الملخص

إن الجزائر زمن الاحتلال كانت تعاني من الإبادة الدينية و الشخصية من قبل السلطة الفرنسية، و كانت الثقافة الاسلامية و اللغة العربية ضحية تلك المعاناة، فقد أغلقت المدارس العربية و انهدمت المساجد و مراكز تعليم القرآن و العلوم الدينية.

ولكن الشعب المسلم بقى ملتزماً بقيمه الروحية، وللأدباء عامة و الشعراء خاصة دورٌ بارزٌ فى التعبير عن روح الشعب و الهاب حماس الجماهير، واستمدوا مادتهم الأدبية من القرآن الكريم. إن الهدف من هذه المقالة دراسة صور من الأثر القرآني لدى الشاعر «مفدى زكريا». والدافع لهذا البحث هو أن الشاعر رغم جو الاختناق الذى ساد المجتمع الجزائرى فى تلك الفترة قد حفظ القرآن و درس العلوم الدينية و رسخ القرآن فى ذهنه و كانت الألفاظ القرآنية حاضرة فى ذاكرته دائماً متجلية فى أشعاره، فاستقرلنا الرأى على أن نقدم نماذج من هذا التأثير فى ديوانه «للهب المقدس» الذى اشتهر بديوان الثورة الجزائرية.

الكلمات الأساسية: القرآن، الأثر القرآني، الجزائر، الثورة الجزائرية، مفدى زكريا، اللهب المقدس.



المقدمة

حاول الاستعمار الفرنسى منذ دخوله الجزائر تحطيم كل القيم الروحية و المادية لدى المجتمع الجزائرى و احلال مفاهيم أخرى مجردة من كل شعور إنسانى محلها. قد سعى النظام الاستعمارى فى الإبادة و محو كل ما يربط الشباب بماضيهم و فرض ثقافة البلد الفاتح على الشعب الجزائرى، و أول ما قام به هو نشر الأمية بين الجماهير بإغلاق المدارس العربية و تحريم التعليم باللغة العربية و فرض تعلم اللغة الفرنسية التى أصبحت اللغة الرسمية للدولة (خضر، ١٩٦٧م، ص٤٨). ثم قام بتضعيف العقيدة الدينية لدى الجزائريين المسلمين و ذلك بتحطيم كل ما له صلة بالدين من تخريب المساجد و قيام المعسكرات مقامها و تعطيل المراكز الدينية.

ولكن هذا الواقع المفروض لم يستطع أن يحول دون محاولة الجزائريين فى الحفاظ على بقاء لغتهم و إن ظلّ مقتصرأ على بعض الزوايا و الكتاتيب. فإن الذى أبقي اللغة العربية حية فى ضمير الشعب، عقيدته الدينية الاسلامية التى جعلته يحفظ اللغة العربية على أنها لغة الدين، و يعرف أن الحفاظ عليها هو الحفاظ على أهم مقوماته الشخصية. تعلم الناس اللغة العربية و القرآن فى الزوايا و الكتاتيب فى اختفاء كامل، وهؤلاء هم الذين حفظوا الدين و اللغة العربية من الضياع، و لاشك أن الأدباء و خاصة الشعراء ساهموا مساهمة فعالة فى حفظ اللغة من الانقراض و تحرير الوطن و الدفاع عن مقومات الشعب الجزائرى.

لما للقرآن من مكانة خاصة لدى الأدباء الجزائريين، فإننا نرى أن الشعراء قد تأثروا بالقرآن الكريم فى أساليبهم و ألفاظهم، و نلمس فى أشعارهم هذا التأثير اقتباساً أو تضميناً أو استلهاماً.

ومن أبرز شعراء الثورة الذين ألهبوا حماس الجماهير، و عبّروا عن روح الشعب الثائر، ووصفوا الواقع الثورى بصدق و إخلاص فى أشعارهم هو الشاعر المناضل مفدى زكريا الذى لعب دوراً رائداً فى الثورة، حيث لقب بشاعر الثورة الجزائرية.



في هذه المقالة نتطرق إلى صور من الأثر القرآني في ديوان «اللهب المقدس» للشاعر مفدى زكريا الملقب بشاعر الثورة الجزائرية.

حياته

جاء في بعض الكتب أنه ولد في قرية «بنى يسجن» أو «بنى يزقن» في واحة «بنى ميزاب» الواقعة في جنوب الجزائر عام ۱۹۱۳م (دوغان، ۱۹۹۶م، ص ۲۹۴ والخونة، ۱۹۹۶م، ج ۷، ص ۲۹۴). أما القول الأصح فهو ما جاء في كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» نقلاً عن الشاعر نفسه ما يلي: «ما تنفس صبح يوم ۱۲ جمادى الأولى سنة ۱۳۲۶هـ إلا وقد خط القضاء اسمي في سجل الأحياء، ترعرعت في واحة بنى ميزاب بقرية بنى يسجن» (الزاهري، ۱۹۲۶م، ص ۱۵۰). لقبه الأدبي «ابن تومرت» وهو واحدٌ من المجاهدين المسلمين ومؤسس دولة الموحدين، ولقبه الثوري «شاعر الثورة الجزائرية». درس القرآن و العلوم الابتدائية في الكتاتيب، و في السابعة من عمره انتقل إلى «عناية» لمتابعة دروسه و بعد ذلك أرسله والده إلى تونس ضمن «البعثة الميزابية» فبقى هناك عامين في «مدرسة السلام القرآنية» حيث تلقى فيها مبادئ العربية، ثم انتقل إلى «المدرسة الخلدونية» لدراسة العلوم، و أكمل دراسته في جامع «الزيتونة» بتونس، فدرس النحو و الصرف و فقه اللغة، ثم عاد إلى الجزائر فانضمَّ إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرى، و لما اختار الشاعر النضال و الثورة و الانضمام إلى جبهة التحرير فكان من المتوقع أن يسجن و يقضى حياته في الزنانات بين حين و آخر، و هذا ما حدث له خمس مرات، إلى أن هرب من السجن و التحق بجبهة التحرير الوطني خارج الجزائر و ساهم مساهمة فعالة في النشاط الأدبي و السياسى متنقلاً بين تونس و المغرب حتى نالت الجزائر استقلالها عام ۱۹۶۲م؛ فاستقرَّ في تونس. و اخيراً انتهت حياة الشاعر إثر سكتة قلبية عام ۱۹۷۷ م. و نقل جثمانه إلى الجزائر و دفن في «وادي ميزاب». (قبش، ۱۹۷۱، ص ۱۶۶ و الزاهري، ۱۹۲۶، ص ۱۵۰ و درّار ۱۹۸۴، ص ۲۰۶).



شاعريته

لقد كان شاعرنا صاحب موهبة شعرية، و ذا ذكاء و قدرة على الولوج فى الجواهر و الأعماق عن طريق الظواهر و الأشكال، و قد حنكته التجارب لأنه قبل أن عانى مأساة شعبه بحسه و خياله و شعوره كشاعر ملهم كابد الهم و أحسسه بحواسه و دمه فى السجون كوطنى مناضل.

فى مجال الشعر يقول الشاعر: «أما الشعر فأنا فيه استاذ نفسى، غير أنى أعرض بضاعتى على أساتذتى رؤساء البعثة الميزابية، و لقد قرأت الزحافات و العلل و الدوائر على شاعر الخضراء العبرى الشاذلى خزندار، و لى اطلاع شخصى على العروض و الموازين.» (الزاهرى، ١٩٢٦، ص ١٥١).

له فى الشعر: ديوان تحت ظلال الزيفون - اللهب المقدس - من وحي الأطلس - إلياذة الجزائر - انطلاقة - الخافق المعذب - محاولات طفولة.

من دواوينه الشعرية التى يتطرق إليها هذا البحث، ديوان «اللهب المقدس» الذى اشتهر بديوان الثورة الجزائرية بواقعها الصريح و بطولاتها الاسطورية و أحداثها الصارخة و قد شبه الشاعر هذا الديوان بشاشة التلفزيون التى تبرز فيها ارادة شعب استجاب له القدر. يصرح الشاعر فى ديوانه «اللهب المقدس» قائلاً: «لم أعن فى اللهب المقدس بالفن و الصناعة عنايتى بالتعبئة الثورية و تصوير وجه الجزائر الحقيقى بريشة من عروق قلبى غمستها فى جراحاته المطلولة» (زكريا، ١٩٦١، مقدمه).

واكب شعره الواقع الجزائرى و ألهب الحماس بقصائده الوطنية التى تحت على الثورة و الجهاد، حيث لقب بشاعر الثورة الجزائرية، وهو صاحب نشيد الثورة الجزائرية و النشيد الوطنى الجزائرى الذى جعله خالداً فى قلوب الشعب عبر السنوات.

لقد لعب مفدى زكريا دوراً فعالاً فى تعبئة الشعب ليخوض غمار الثورة، و استطاع أن يصور وجه الجزائر الحقيقى أثناء الثورة.



أثر القرآن في شعر مفدى زكريا

بما أن الشاعر درس علوم القرآن والفقه و الادب العربي في الكتاتيب و المدارس الدينية، فمن الطبيعي أن يطبع شعره بطابع ديني اخلاقي و بما أنه حفظ القرآن قد رسخت الألفاظ القرآنية في ذاكرته و شاع استخدام الألفاظ و التعابير و المضامين القرآنية في شعره بحيث انه يعد من طليعة المتأثرين بالقرآن الكريم في الجزائر (بيظام، ۱۹۹۸م، ص ۳۲۸)

لا شك أن القرآن كان يحتل مكانة مرموقة من نفس زكريا، فلا بد أن تتضح هذه المكانة في أشعاره (محمد ناصر، ۱۹۸۵م، ص ۴۷۰)، و الدليل على ذلك أننا لانكاد نجد قصيدة واحدة لم يتضح أثر القرآن فيها سواء في الألفاظ أو المعاني.

الصور المستحددة من الالفاظ والمفاهيم القرآنية

هناك قصائد كثيرة استخدم فيها الشاعر الألفاظ القرآنية سواء في معانيها القرآنية أو غيرها. فللشاعر قصيدة نظمت بسجن بربروس عام ۱۹۵۷م، بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشرة، عنوانها «وتعطلت لغة الكلام» يقول فيها:

نطق الرصاص، فما يُباحُ كلام
و جرى القصاص، فما يتاحُ ملامُ
وقضى الزمان، فلا مردَّ لحُكمه
و جرى القضاء و تمت الأحكامُ
وسعت فرنسا للقيامه وانظوى
يوم النشور و جفت الأقسامُ

(ديوان، ص ۴۲)

في هذه الابيات استخدم الشاعر ألفاظاً لها معاني دينية وقرآنية مثل «القصاص، والقيامه، و النشور» التي وردت في القرآن الكريم وأعطاهها معنى رمزياً جديداً مستلهماً من معانيها الأصلية. كما يذهب في البيت الثاني إلى أن رفع السلاح في وجه الطغاة الظالمين حق،



لأن الله قضى على فناء فرنسا و انتهاء عظمتها إلى الأبد واستخدم «فلا مرد لحكمه» مستلهماً
التعبير القرآني «لا مرد له» (الرعد/١١)

و فى بيت آخر لهذه القصيدة يقول الشاعر:

لا الذارياتُ الماحقاتُ هو اطلالُ
لا الشامخاتُ تدكُّها الألفامُ

(ديوان، ص ٤٥)

استخدم الشاعر كلمة «الذاريات» كما جاء فى قوله تعالى: «وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا»
(الذاريات/١) و أعطاهها معنى جديداً رمزياً غير المعنى الذى جاء فى القرآن، فالذاريات فى
الآية بمعنى الرياح الشديدة و فى شعر الشاعر بمعنى الطائرات.

زجّ بالشاعر فى زنزانة مظلمة بسجن بربروس عام ١٩٥٥ فنظم فى ظلام الزنزانة قصيدة
«زنزانة العذاب» و حفظها بيتاً بيتاً لاستحالة كتابتها. فى هذه القصيدة يفدى الشاعر وطنه
بروحه تقرباً إلى الله دون من و ملق و لا يابه بجفاء ذوى القربى و يقول إنه يبقى وفيّاً لهم
حتى تنجلي الحقيقة:



روحي! وهبتك يا روعي، فدا وطني
زُلْفَى إِلَى اللَّهِ، لَامِنٌ وَلَا مَلِيقٌ
و إن جفانى ذوو القربى، فلاعجب
إن النبوة فى أوطانها خرق
لازلتُ أرى لهم عهداً و إن بقيت
مثل المدى من جفاهم فى الحشى خرق
سيذكرون إذا الليل رهيبٌ سَجى
و جلجل الخطب، أنى فى الدجى خَلقُ

(ديوان، ص ٢٩)

ففى البيت الأول يذكرنا الشاعر بالآية الكريمة «وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقرىكم
عندنا زلفى» (سبأ/٣٧)، وفى البيت الثانى يتحدث عن ذوى القربى اقتباساً من كلام الله

عزاسمه «آتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى و المساكين» (البقرة/۱۷۷) وفى البيت الأخير اقتبس الشاعر من الآية الكريمة «... و الليل إذا سَجَى» (الضحى/۲).
و الشاعر فى وصف صحارى بلده يستخدم التعبير القرآنى «جَناتِ عدن» الذى ورد فى كثير من الآيات، منها « وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جَناتِ عَدْنِ» (التوبة/۷۲) كناية عن آبار النفط الموجودة فى الصحراء و يقول:

و فى صحرائنا جَناتُ عدن
بها تَنسَابُ ثروتُنا انسابا

و فى صحرائنا الكبرى كنوز
نطارِدُ عن مواقعها الغرابا

(ديوان، ص ۳۳)

و فى بيت آخر من القصيدة نفسها يقول الشاعر:

و فى واحاتنا ظلٌ ظليلٌ
تفورُ به نواعِرها حُبابا

۱۸۳

ويأتى بتعبير «ظل ظليل» مستلهماً من الآية «... وندخلهم ظلاً ظليلاً» (النساء/۵۷). وقد أخذ الشاعر لفظة «تفور» بنفس المعنى القرآنى فى الآية: «إذا ألقوا فيها سَمِعُوا لهاً شهيقاً وَ هى تُفورُ» (الملك/۷).

و فى قصيدة «من يشتري الخلد؟ إن الله بئعه» يصف الشاعر مدينة قسنطينة وصفاً شائقاً مستمداً من القرآن الكريم فى تعبيره يقول:

و ادى الهواً بالهوى، نشوانَ خاصرها
و خاصرته، كأن الامرَ مقصودُ

لدى خريير من الأمواه، تحسبها
لحناً من الخلد، قدغناه داوودُ

الكوثرُ العذبُ، يحكيها و يحسدها
وحوضها الخُلومُ مثل الحوض مورودُ

(ديوان، ص ۲۶۴)

فى هذه الأبيات يرسم الشاعر صورة وادى الهوا، يتحدث عن خصائصها و مائها العذب ، ويشبه خريمياها كأنها ألحان الجنة، و استخدم لفظة الخلد التى جاء ذكرها فى الآية «أذلك خيرأم جنة الخلد التى وعد المتقون» (الفرقان/ ١٥) وأراد بها الجنة، ويشبه عذوبة مائها بماء الكوثر فى الجنة آخذاً هذه اللفظة من الآية «إنا أعطيناك الكوثر» (الكوثر/ ١) و فى تحريض جمعية العلماء المسلمين يقول مخاطباً إياهم:

سيروا، ولا تهنوا، فالشعب يرقبكم
و جاهدوا، فلواء النصر معقود

(ديوان، ص ٢٦٨)

يستمد الشاعر فى قوله «ولا تهنوا» من الآية القرآنية «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ» (آل عمران/ ١٣٩). و فى «جاهدوا» من قوله تعالى «وجاهدوا فى الله حق جهاده» (الحج/ ١٧٨) ليكون كلامه أوقع فى النفوس.

فى قصيدة «فلسطين على الصليب» التى نظمها فى الذكرى ١٣ لتقسيم فلسطين و التى اختتم فيها ديوانه «اللهب المقدس» نجد حواراً بين الشاعر و فلسطين و فيها يتحدث عن قضية فلسطين و ها هو يخاطبها قائلاً:

أناديك فى الصرصر العاتيه
و بين قواصفها الذاريه
و أدعوك بين أزيز الوغى
و بين جماجمها الجائيه
فلسطين يا مهبط الأنبياء
و يا حجة الله فى أرضه
و يا هبة الأزل الساميه
و يا قُدْساً باعه آدم
كما باع جنته العاليه

(ديوان، ص ٣٣٦)



ففى البيت الأول أورد الشاعر تعبير «الصرصر العاتية» الذى جاء ذكره فى الآية القرآنية «فَأَمَّا عَادٌ فَاهْلَكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ» (الحاقة/ ۶). و فى البيت الآخر شبه الشاعر فلسطين بالجنة العالية و كما باع آدم الجنة بحبة عنب و أخرج منها، فبعض العرب الساكنين فى فلسطين باعوها وسلموها للصهاينة.

ما يلفت النظر فى هذه القصيدة هو أن موسيقى قوافى هذه القصيدة نفس موسيقى سجع الآيات فى سورة «الحاقة»، الأمر الذى يجعلنا ندرك مدى رسوخ القرآن و تأثيره العميق فى نفس الشاعر.

فى موضع آخر فى وصف المناضلين يقول الشاعر:

بناشئة هناك، أشدُّ وطأً
و أقومُ منطقا، و أحدُّ نابا

(ديوان، ص ۳۰)

هذا البيت اقتباس لفظى من قوله عز اسمه «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَ أَقْوَمُ قِيلاً» (المزمل/ ۵). و استخدم الشاعر ألفاظ هذه الآية التى جاءت فى وصف الليل و أوقاته لوصف الأبطال و المناضلين فى الثورة الجزائرية.

و فى مواضع من الديوان فى الدعاء على الجبان و الذى يرضى بالذل، نرى الشاعر يقول:

يَا سَمَاءُ اصْعِقِي الْجَبَانَ وَ يَا أَرْضَ
ضُ اِبْلَعِي الْقَانِعَ الْخَنُوعَ الْبَلِيداً

(ديوان، ص ۱۷)

أو:

أماناً أَلَا يَا سَمَاءُ اقلَعِي
فَقَد صَبَّتِ الْأَرْضُ أَنْكَالَهَا

(ديوان، ص ۲۷۴)



مستمدداً الصور من الآية «... وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي» (هود/٤٤).
بعد أن أثمرت شجرة الثورة وحقق الشعب الجزائري انتصارات عظيمة صورها
الشاعر كهيئة زرع أخرج شطأه قائلاً:
و السزج أخرج فى الجزائر شطأه
فمضى وهباً إلى الحصاد كرام

(ديوان، ص ٤٤)

مشيراً إلى قوله تعالى «كَزَّرَجٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَوى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ»
(الفتح/٢٩).

فى قصيدة نظمها فى ذكرى احتلال الجزائر، شبه الشاعر طغيان الاستعمار فى أرض
الجزائر بالزلازل الذى زلزل الأرض مستلهماً قوله تعالى: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا» (زلزلة/
١) يقول:

أجهنم.. هذى التى أفواهاها
من كل فج، نعمة تنفجر
أم أرض ربك، زلزلت زلزالها
لما طغى، فى أرضه المستعمر

(ديوان، ص ١٣٣)

و فى قصيدة أخرى نظمها الشاعر بمناسبة تدشين دار «ابن باديس» للطلبة الجزائريين
التابعين لجمعية العلماء المسلمين بقسنطينة عام ١٩٥٣م، عنوانها «من يشتري الخلد إن الله
بائعه» يقول:

يا دار حملت آمال البلاد، ففى
أحشائك اليوم، أشبال صناديد
دار ابن باديس فى «سرتا» يظللها
نصر، إلا إن نصر الله موعود

(ديوان، ص ٢٦٩)



يُصور أن النصر أظل على هذه الدار، وهذا ما وعد الله به اقتباساً من قوله تعالى «ألا إنَّ
نُصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» (البقره/۲۱۴).

إلى أن يقول:

أليومُ يا ناسُ يومُ البعث فاستبقوا
للسالحات، فما في الخير تهديدُ

(ديوان، ص ۲۷۰)

ربما استلهم الشاعر ذلك من قوله تعالى «... فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ» (يس/۶۶). و في مقطع
آخر من هذه القصيده يقول الشاعر في تحريض الناس على العطاء و الجود:

و الريح - يا ناسُ - مضمونٌ و مدَّخرٌ
في مصرف الله، لا في البنك مرصودٌ

إن تبذلوا المال في الجلى يُردَّ لكم
الخيرُ بالخير، مزروعٌ و محصودٌ

(ديوان، ص ۲۷۱)

يؤكد أن العمل الصالح يدخر عند الله و أن العطاء يستتبع ازدياد المال و يضمن للناس
الربح الكثير مستمداً في بيان هذا من القرآن الكريم «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» (زلزلة/۷)
و في ختام قصيدة ألقاها الشاعر في حفل تكريم الاستاذ «احمد توفيق المدني»
بعاصمة الجزائر عام ۱۹۵۵ بمناسبة مرور ثلاثين سنة على كفاحه بالجزائر، يقول على لسان
الجزائر داعيةً أبنائها للاتحاد و ترك النزاع بينهم:

و تنادى: أليس فيكم رشيدٌ
يدفعُ اليوم، منكر القول، جهراً

أصلحوا ذات بينكم و استقيموا
إن فعلتُم: سيَجعلُ اللهُ أمراً

(ديوان، ص ۲۸۳)



من الواضح أن الشاعر يسعى إلى اصلاح ذات البين واجتناب التفرقة، و في النظرة الأولى إلى ما قاله الشاعر في هذا الأمر يستطيع القارئ أن يدرك أنه استوحى من قوله تعالى «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» (الانفال/١).
و في قصيدة «فلسطين على الصليب» تكثر التعبيرات المستمدة من سورة «الحاقة». يقول الشاعر على لسان فلسطين :

فاقتص من قوم موسى غداً
و أخذهم أخذة رابيه

(ديوان، ص ٣٤٤)

المصرع الثاني اقتباس من الآية «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً» (الحاقة/١٠).

و في القصيدة نفسها يقول الشاعر على لسان العرب بعد انتباههم من غفلة طويلة نادمين:

و قال ابن يعرب لَمَّا تيقَ
ظ: لم أدر- من سكرتى- ماهيه؟
و لم أقطن لثالوثها
و لم أدر- من غفوتى- ماهيه؟

إلى أن يقول:

فيا ليتنى لم أخن ثورتى
و لم أطف نيرانها الحاميه

(ديوان، ص ٣٤٤)

إن قارئ هذه الأبيات لا يحتاج إلى جهد كبير ليدرك علاقة معانيها بالمعاني التي

تضمنتها الآية «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ» (القارعة/١٠ و١١).

و يختتم القصيدة بهذين البيتين :

فإن تنصروا الله ينصركم
و يُنجز أمانكم الغالبيه



و لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ مِيعَادَهُ
و لَارِيِبَ سَاعَتُنَا آتِيَهُ

(ديوان، ص ۳۴۹)

يخاطب اخوانه في فلسطين محرّضاً اياهم على الثورة و استرجاع ارضهم المغتصبة ظلماً و استعادة حقوقهم المسلوبة، متأكداً من أن الله يؤيدهم بالنصر مشيراً في البيت الأول إلى قوله عزوجل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (محمد/۷). و في البيت الثاني إلى قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» (الرعد/۲۱). أو «قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ» (البقرة/۸۰). و «وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ» (الحجر/۸۵). الموازنة بين هذه الصور تكشف لنا أن الشاعر اقتبس هذه الآيات بنصها و ذكر الألفاظ القرآنية نفسها و تصرف فيها بعض التصرف و ذلك لاقتضاء قواعد نظم الشعر.

وللشاعر اسلوب آخر في استخدام الصور الشعرية المستمدة من القرآن، و هو أنه يستقي الصور المتعددة من إحدى سور القرآن و ذلك حين يجد بين الصورة التي يريد رسمها و الصور الموجودة في السورة تشابهاً. للشاعر قصيدة عنوانها «و قال الله» نظمها بسجن «البرواقية»، مطلعها:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا
(نغمبر) هل و فیت لنا النصابا

و هل سمع المجيب نداء شعب
فكانت ليلة القدر الجوابا؟

و قد اعتبر مفدى زكريا ليلة أول نوفمبر (ليلة اندلاع الثورة) التي غيرت مجرى التاريخ في الجزائر، و وضعت حداً للاستعمار الفرنسي الذي استمر مائة و ثلاثين سنة ليلة القدر الكبرى التي نزل فيها القرآن و حول مجرى التاريخ البشري من عبادة الأصنام إلى عبادة الله، و من



ظلمات الجهل إلى نور الهداية و التي يقترن فيها الدعاء بالاستجابة، فاقترن دعاء الشعب الجزائري بالاستجابة التي حققت النصر والاستقلال؛ و تابع قوله:

زَكَتْ وَنَبَاتُهُ عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ
قضاها الشعبُ يَلْتَحِقُ السَّرَابَا
ملائِكُ، بِالْفَوَاتِكِ نَازِلَاتُ
بِإِذْنِ اللَّهِ، أَرْسَلَهَا خَطَابَا
تَنْزَلُ رَوْحُهَا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ
بأحرار الجزائر قد أهابا

قد استوحى الشاعر هنا الصورة الشعرية مباشرة من سورة القدر التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ» (القدر/ ١-٥).
نمضى مع الشاعر فى ديوانه ونصل إلى قصيدة «ألا إن ربك أوحى لها» التي نظمها بمناسبة زلزال بلدة «الأصنام» غربى الجزائر بشهر واحد قبيل الثورة، و قد نشرت فى جريدة «البصائر» عام ١٩٥٤م، و نشاهد صوراً كثيرة من سورة «زلزلة». فهو عندما أراد أن يصور الأحداث الناجمة عن زلزال الأصنام والمصائب التي واجهها الناس والكوارث التي لحقت البلاد بدا أنها تشبه أحداث يوم القيامة التي صورها الله فى سورة «الزلزلة» حيث يقول:

هو الإنم، زلزل زلزالها
فزلزلت الأرض زلزالها
وحملها الناس أثقالههم
فأخرجت الأرض أثقالها
وقال ابن آدم فى حمقه
يسائلها ساخرأ: ما لها؟
فلا تسألوا الأرض عن رجعة
تحاكى الجحيم وأهوالها

ألا إن إبليس أوحى لكم
ألا إن ربك أوحى لها

(ديوان، ص ۲۷۳)

من البين أن الشاعر كرّر المناظر التي تصور أحداث يوم القيامة و أنه قلّد السورة في ألفاظها و فواصلها و موسيقاها حد التضمين و الاقتباس. هذه الأبيات تذكرنا بقوله تعالى «إذا زلزلت الأرض زلزالها و أخرجت الأرض أثقالها و قال الإنسان ما لها يومئذٍ تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها...» (الزلزلة/ ۱-۵)

الصور المستحده من قصص الأنبياء

هناك أسلوب آخر في استخدام الشاعر الصور الشعرية المستمدة من القرآن، وهو أن الشاعر يقتبس الصورة من سور متعددة، غالباً ما يستخرجها من قصص الأنبياء. في قصيدة «الذبيح الصائد» التي نظمت بسجن بربروس في منتصف الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على الشهيد أحمد زبانا عام ۱۹۵۵ و الذي قدم روحه قرباناً للثورة الجزائرية، كان الشاعر يرى في هذا المناضل صورة مجتمعة من الأنبياء و الملائكة من عيسى، و موسى، و الروح، و محمد عليهم السلام، حيث يقول:

قام يخال كالسيح وئيدا
يتهادى نشوان يتلو الشيدا

حالمأ كالكليم، كلمه المجيد،
فشدّ الحبال يبغى الصعودا

و تسامى كالروح في ليلة القدر
سلاماً يشع في الكون عيدا

وامتطى مذبح البطلوة معراجاً
ووافى السماء يرجو المزيداً

يتابع قوله في تصوير شجاعة الشهيد و بطولته و يقول على لسانه:



اشنقونى فليست أخشى حبلا
 واصلبوني فليست أخشى حديدا
 وامتثل سافراً محياك جلا
 دى ولا تلتثم فليست حقودا
 واقض يا موت فى ما أنت قاض
 أنا راض إن عاش شعبي سعيدا

(ديوان، ص ١٠)

فى البيت الأخير اقتبس الشاعر من قوله تعالى «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» (طه/٧٢).

فى الذكرى السابعة من الثورة الجزائرية عام ١٩٦١م، نظم الشاعر أثناء زيارته لبنان
 طبع «اللهب المقدس» قصيدة سماها «فلا عز... حتى تستقل الجزائر»، وأذيعت فى جميع
 العواصم العربية يوم الذكرى، يقول فى مقطع منها:

وما دلنا عن موت من ظن أنه
 سليمان - منسأة - على وهمها خرا

اشارة إلى الآية «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ،
 فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ» (سبأ/١٣).
 ويستتبع قائلاً:

ورثنا عصا موسى فجدد صنعها
 حجاناً فراحت تلقف النار لالسحرا
 وكلم موسى الله فى الطور خفية
 وفى الاطلس الجبار كلنا جهرا
 وأنطق عيسى الإنس بعد وفاتهم
 فألهمنا - فى الحرب - أن نطق الصخرا
 وكانت لإبراهيم برداً جهنم
 فعلمنا - فى الخطب - أن نمضج الجمرأ



وَأَدَمُ بِالتَّفَاحِ ضِيْعَ خُلْدِهِ

و(ماریان) بالتفاح نلقى بها البحرا

و حدثنا عن يوم بدر محمد

فقمنا نضاهى فى جزائرنا «بدرًا»

(ديوان، ص ۳۰۶)

ومن الملاحظ أن الصور القرآنية لا تكون مقتبسة من سورة معينة، واستخرجها الشاعر من قصص الأنبياء، ويبدو أن هذه القصص من أغزر المصادر التي يستقى منها مفدى زكريا فى تصوير الأحداث السياسية التي يرغب فى ابراز عظمتها. فى تصورالشاعر هذه الثورة لاتقل عن قدسية معجزات سليمان، و موسى، و عيسى، و ابراهيم، و آدم، و محمد عليهم السلام. و فى مقطع آخر من القصيدة يستلهم من الآية «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ويشير إلى هذا قائلاً:

و لَبَّأكَ شَعْبٌ كَادَ يَفْقَدُ ظَنَّهُ

بوعدك لولا أنه يحفظ الذكر

و يقرأ فى التنزيل عند صلاته

بأنك بعد العسر تغمُره يُسرا

(ديوان، ص ۳۰۹)

فكانت الآية القرآنية حاضرة فى ذهن الشاعر فأشبع الصورة التي كوَّنها انطباعه. يوم الاعتداء الثلاثى على قناة السويس ۲۹ اكتوبر ۱۹۵۶ نظم الشاعر ابياتاً فى سجن بربروس، و عندما عثر الحراس على مسودة القصيدة أثناء عملية التفتيش مزقوها و قادوا الشاعر إلى زنزانة العذاب حيث قضى عشرين يوماً تحت التعذيب صباح مساء، يجلِّد بالسياط و يعذب بالأشغال الشاقة و الجوع، و الشاعر تذكر الايات العشرة الاولى و هو فى بيروت يوم ذكرى الاعتداء الثلاثى، فأتم القصيدة بعد خمس سنوات، يقول فى أبياتها الأولى مخاطباً جمال عبدالناصر:

قل يا جمال، يردد قولك الهرم

و احكم بما شئت، تُنجز حكمك الأمم



واصدع بأمرك (فالثالوث) ^أ يرهبه
واخفق بفغر الحمى، يخفق به العلم

(ديوان، ص ٢٩٩)

ربما استلهم الشاعر فى البيت الثانى من الآيه «فأصدع بما تؤمر و أعرض عن
المشركين» (الحجر/٩٤).

إلى أن يقول:

ألقى عصاه بها (موسى) مروعة
راحت لما بث (اسماعيل) تلتقم

(ديوان، ص ٣٠٠)

قد استوحى الشاعر قوله تعالى «فألقي موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون»
(الشعراء/٤٥).

وقد صرح بهذه الآيه فى قصيدة «فلسطين على الصليب» حيث يقول:

إذا جاء موسى و ألقى العصا
تلقف ما يافك الطاغية

(ديوان، ص ٣٤٤)

يبدو أن قصة موسى لها تأثير كبير فى الشاعر و أثارت اعجابه و اقتبس من أحداثها و
موافقها خاصة لحظة إلقاء موسى عصاه التى تجسم فى نظر الشاعر انتصار الحق على الباطل
، و استخدم الشاعر عصى موسى رمزاً فى شعره كلما أراد أن يصور المواقف الثورية و
انتصاراتها. ربما يرجع ذلك إلى طبيعة مفدى زكريا الثورية و إيمانه باستخدام القوة لتغيير
الاضاع و نضاله فى سبيل استقلال الجزائر.

النتيجة

مما لاشك فيه أن شاعرنا «مفدى زكريا» شاعر موهوب، ساعدته على ذلك ثقافته
الدينية و العربية، و قد رسخ القرآن فى ذهنه و تجلى فى شعره، و أن ثقافته الدينية لها دخل



كبير وتأثير مباشر في تكوين صوره الشعرية. قد اتخذ الشاعر من الصورة الشعرية المستمدة من القرآن وسيلة لنقل أفكاره و تجاربه للمتلقين، و من يطالع ديوان «اللهب المقدس» يلمس فيه تأثره بالقرآن و أشكالا أو وجوهاً من الأثر القرآني لدى الشاعر، فيظهر هذا الأثر في تعبيره الشعري بأساليب مختلفة فيستمد في بعضها اللفظ الصريح و في البعض الآخر يستلهم المفاهيم و المضامين، فنستطيع القول بأن الأثر القرآني في التعبير عند مفدى زكريا يأتي بمختلف الاشكال اقتباساً أو تضميناً أو استيحاءً.

الهوامش

- ۱- ملقه: توذدّ إليه وتذلل له و أبدى له بلسانه من الإكرام و الودّ ما ليس في قلبه.
- ۲- حول بلدة قسنطينة واد عميق تصفّق فيه الرياح و تتدفّق فيه المياه الصاخبة. (الديوان، هامش

القصيدة

- ۳- الاشارة إلى حوض «سیدی مسید» و حوض «سیدی غراب» اللذين تغمرهما الشلالات المتشابكة. (الديوان، هامش القصيدة)

- ۴- خنع له و إليه: خضع و ذلّ. البليد: غير ذكيّ

- ۵- الصناديد جمع الصنديد: الشريف الشجاع.

- ۶- «سرتا» اسم بلدة في قسنطينة.

- ۷- المرصود: الرصيد، ما يبقى للمودع في المصرف من حسابه الجاري.

- ۸- الاعتداء الثلاثي على قنال السويس

- ۹- الخديوى اسماعيل الذى وزع أسهم استغلال القنال على الأجانب بسخاء في

الشركة. (الديوان، هامش القصيدة)

المنايع

- ۱- القرآن الكريم.

- ۲- بن قينة، عمر، الخطاب القومى في الثقافة الجزائرية، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ۱۹۹۹م.



- ٣- بيطام، مصطفى، الثورة الجزائرية فى شعر المغرب العربى، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٨ م.
- ٤- خضر، سعاد محمد، الأدب الجزائرى المعاصر، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٦٧ م.
- ٥- الخونة، مسعود، الموسوعة التاريخية و الجغرافية، بيروت، مؤسسة هانيا، ١٩٩٦ م.
- ٦- درار، أنيسه بركات، أدب النضال فى الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤ م.
- ٧- دوغان، أحمد، فى الأدب الجزائرى الحديث، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٦ م.
- ٨- الزاهرى، محمد الهادى، شعراء الجزائر فى العصر الحاضر، الطبعة الأولى، تونس، المطبعة التونسية، ١٩٢٦ م.
- ٩- زكريا، مفدى، اللهب المقدس، الطبعة الأولى، بيروت، منشورات المكتب التجارى، ١٩٦١ م.
- ١٠- قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربى الحديث، دمشق، مؤسسة النورى، ١٩٧١ م.
- ١١- ناصر، محمد، الشعر الجزائرى الحديث، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٨٥ م.



The Effects of the Quran on the Poetry of Mofdi Zakarya, the Poet of the Algerian Revolution Era

***Fateme Ghaderi, Ph.D
Yazd University***

Abstract:

Upon occupying Algeria, France started practicing hegemonic policies that were subversive to the religious, cultural, and national identities of that country. In addition to Algerian ethnic recognitions, Islamic culture and Arabic language were victimized too. Arabic schools were closed down and religious scholastic centers were destroyed into shut ruins. In spite of all this, the Algerian Muslim nation kept abiding by its religious values.

This state of affairs gave men of letters, in general, and poets, in specific, an outstanding role in voicing the public opinions and developing chivalry spirits in the nation for resistance. Equipped with valuable religious teachings gained through delving in the Quran, the literature folks tried their best to preserve genuine cultural rules.

One of the Algerian then-poets who stood up mightily against the despotic French puppet government was Mofdi Zakarya. By memorizing and teaching the Quran, he granted his poetry an obvious force of
-lahab-al-

provide a topic for the present article.

Key words: *the Quran, Quranic impacts, Algeria, Algerian revolution, Mofdi Zakarya, Al-lahab-al-Moghaadas.*

